

السنة: 2016	المجلد : الأول، العدد الأول	مجلة دراسات فنية
-------------	-----------------------------	------------------

التواصل من خلال التصوير الإسلامي

جامعة تلمسان

قليل سارة تحت إشراف الدكتور: أوراغي أحمد

الملخص:

التواصل بين المجتمعات وعبر مختلف الحضارات طريقة لتقريب بين الشعوب ويكون بعدة طرق سواء من خلال الأدب أو الموسيقى أو صناعات مختلفة، كما يمكن التواصل من خلال الفن الذي يعتبر لغة من اللغات المشتركة بين الناس والشعوب والثقافات والحضارات خاصة أن فن التصوير الإسلامي شمل الكثير من المجتمعات والحضارات فهو همزة وصل ساعدت على زيادة و تطوير ثقافة الإنسان.

Communication between communities and different civilizations leads to approach people, It can be realized through several fields as : literature, music or even various industries. Art which is a common language between human being, cultures and civilizations could be another form of communication, the islamic arts, particuraly the islamic miniatures which include many societies and civilization are considered as a link that contribute in the evolution of human culture.

الكلمات المفتاحية: التصوير، التصوير الإسلامي، محمد راسم.

يجمع التواصل بين الناس في المجتمع الواحد وبين الشعوب في العالم الإنساني المتنوع، فهو يثري الحياة الثقافية والحضارية من خلال الحفاظ على الأصالة في الإبداع والاستعاب والوجود، والحيوية في الإستمرار والإمتداد والتوسع والفاعلية في الإنتاج والعطاء والتأثير فضلا عما نشأ وينشأ من خلال هذا التواصل من مفاهيم معرفية وحضارية من خلال حركات ومدارس فكرية جديدة، فهو خطاب معرفي عام وشامل لثقافة الإنسان وحضارته يتجسد من خلال العلاقة الجدلية بين الهوية والماهية، أو المضمون والشكل أو النمط والأسلوب وغير هذا مما يقبل الإستمرار والإنتقال والتزاوج والتفاعل من الظواهر والقيم والأعمال والأفعال والأفكار والتصورات وغير ذلك مما يمكن أن يجري في إطار المحور المعرفي للتواصل.¹

والفن الإسلامي الذي يعتبر فن عظيم ومهم بين أنواع الفنون والجمال²، الذي يسعى إلى إيصال أفضل وأرقى القيم والأفكار والأحاسيس بأسلوب مؤثر وجميل إلى الآخرين متميزا بعنصر المتعة وبهذا يؤثر في سلوك الناس بطريقة غير مباشرة. فقد شمل عدة مجالات من بينها فن العمارة و التصوير الإسلامي وغيرها من الفنون. إن فن التصوير الإسلامي ساهم في توسيع نطاق التواصل وإثراء ثقافة المجتمع والحضارات فهو يعرض الجوهر أو الشكل والمضمون لفكرة أو عادات أو سلوك، والتصوير أو صورة الشيء ماهيته المجردة وخياله في الذهن أو العقل³ فكل جسم له صورة⁴ رمزا له أو دلالة عليه أو تعبيرا عنه...

والصورة في الفن الإسلامي أو بالأخص في التصوير الإسلامي إنما هي وسيلة ورسالة في آن واحد من حيث التعريف بالموجودات والأشياء والتعبير عن المشاعر و الأفكار، وبيان الأفعال والحركات، ووصف الأشكال والمرسومات وغير ذلك مما يجعل

الصورة كأنها قلب ثقافة التواصل الإسلامي النابض بالمعنى والقصد والفهم والوعي، والتوضيح والإتصال و التواصل، فالمعاني لا تبدو ذات قيمة جمالية أو فنية في ذاتها، بل قيمتها في تصويرها، باستخدام الخيال الذي ينقلها من المعقول إلى المحسوس من أشكال التواصل ووسائله.⁵

ان التصوير الإسلامي كما يعرفه سيد قطب هو الصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشاهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتحددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل.⁶

هذا الفن يساعد في عكس الحضارة الإنسانية للمجتمع ما ويعدد انجازاتها من خلال عمل في إبداع تنطوي جماليته على قدرات عقلية، تؤرخ الحدث المادي في طقوس محسوسة يجسدها هذا الفن الذي يعد كأثر تاريخي يوثق الفعل الحضاري على مرّ الحقب الزمنية، حتى أضحي مرآة حضارية يمكن العودة إليها لإدراك خصائص الإرث البشري، وقد شمل التصوير الإسلامي مختلف الحضارات التي عرفت البشرية وقد طور الفنان المسلم هذا الفن الذي ورثه من حضارات سابقة ومن خلال ما وصله من مخطوطات وصور. فالصورة في هذا الفن تجمع عدة تأثيرات فهي أشبه بحوار حضارات عربية وإيرانية وصينية ومغولية وهندية وتركية وعثمانية، فلقد تبادل الفنانون المسلمون مختلف الأعمال فيما

بينهم مما جعل فهم رسالة عابرة على مر الزمن من خلال مختلف الفنون تارة من خلال صور وزخارف وتارة من خلال لوحات خطية زخرفية ومذهبة لتصير هوية متميزة للفن القادم من مختلف العصور وأشهر كتاب شمل هذا النوع من الفن والذي اعتبر تبادلاً حضارياً وتواصل إنساني هو كتاب "كليلة وذمنة" وتتنوع الصور في هذا الفن وتعدد أجناسها المعرفية والعلمية والأدبية والفنية في ثقافة التواصل إلى أصناف وأنواع ومراتب عديدة ومتنوعة.⁷

ويختلف التصوير حسب أنواعه فهناك التصوير الجداري بالألوان المائية وقد استخدمه الفنان المصري في رسمه على جدران المقابر والمعابد وكانت رسوماته طريقة للتواصل مع الشعوب والحضارات التي أتت بعده، عكست حضارة ذلك الشعب وعاداته وتقاليد، كما يوجد التصوير بنف الفسيفساء وهو عبارة عن صور فسيفسائية تكون من قطع صغيرة من الأحجار أو الرخام أو الزجاج أو الذهب أو الفضة كانت عاكسة لحياة الشعوب وصلة وصل وتوضيح بين المجتمعات الموجودة في مختلف العماثر. والتي من بينها الصورة الفسيفسائية بالجامع الأموي بدمشق ومن أهمها جزء يعرف باسم صورة البردي التي تمتد على الجدران مسافة طولها أربع وثلاثون ونصف متر وارتفاعها أكثر من سبعة أمتار.⁸

كما كان للتصوير المخطوطات وقعة على مختلف الحضارات ووسيلة ربطت مختلف الشعوب من خلال المخطوطات والكتب التاريخية والعلمية التي حملت صوراً توضيحية فهي عبارة عن لوحة فنية بالغة الدقة في التفاصيل ومن بين الأعمال التي لا يزال وقعها على مختلف الحضارات والمجتمعات "مقامات الحريري" "كليلة وذمنة" بحيث كانت أغلبها تعبر عن الحياة الاجتماعية والحياة اليومية لذلك الوقت، فكانت وسيلة تواصل بين الشعوب وساعدت على معرفة تلك الحياة وغطتها وشعبها من خلال ما

سجله الفنان ببراعة ودقة فائقة بحيث يمكننا من أخذ انطباع كامل على ذلك المجتمع. فالتصوير إضافة إلى تلك الصورة التوضيحية فيمتاز بالتناسق بين العناصر المختلفة من الزخرفة الهندسية والنباتية وكتابات خطية ويستطيع الفنان أن يحاكي المجتمع وينقل له مختلف العادات والحركات والحياة الخاصة بفترة أو مجتمع أو شعب معين.

أما بالنسبة لتلك الزخرفة البارزة في التصوير الإسلامي سواء كانت نباتية عبارة عن وحدات مستوحاة من الأشكال المختلفة للنبات فيستلهم منها الفنان سواء بنقل أشكالها كما هي أو بتحويلها أو برسم رموز مجردة لها أو زخرفة هندسية تفنن فيها الفنان المسلم بحيث شكل الخطوط بطريقة فنية ومنسجمة ومتداخلة مع بعضها البعض، إن كلتا نوعين تحملان معان في طياتها، فهي تعكس عدة أفكار وعقائد دينية إضافة إليها فقد أضاف الخط العربي أو ما يعرف بالزخرفة الخطية بلمسة جمالية وتوضيحية في نفس الوقت فكان عبارة عن رسائل أو أفكار يهدف الفنان إلى إيصالها للمجتمع بطريقة فنية حاملة في طياتها عدة معان ودلالات.

ومن بين الفنانين الذين اتخذوا من أعمالهم في مجال الفن الإسلامي وسيلة للتواصل مع المجتمع كما بقيت آثار تحكي للحضارات الأخرى واقع ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده... الفنان الجزائري محمد راسم حيث كان لأعماله وقع على الناس ووسيلة للتواصل معهم، هذا الفنان الجزائري ابن القصبة كانت له انتاجات فنية كثيرة ومتعددة، فكانت أعماله عامرة بالوصف والتحلي البصري الواقعي والمنتخيل فيها من آليات الرسم والتصوير ما يكفي للتأمل والإعجاب، وما تحمله مواهبه من خصوصية تأليف وسرد بصري وتكريس الجماليات مرئية وتفاصيل في متنها لغة الشرق العربي الإسلامي وروحانياته وتقنيات الفنون الأروبية ولتبرز لوحاته بمخطوطاتها وألوانها وسطوحها وفكرتها الجمالية الموصوفة مكونة باقة تشكيلية عربية متفردة⁹، حملت في طياتها تاريخا مجيدا ومجتمعا جزائريا فكان إنتاجا فنيا يتواصل به مع شعبه ويوصل له رسائل مختلفة من خلاله.

لقد اتخذ محمد راسم في لحظة من الزمن أعماله لتأدية وظيفة معينة فوجد فيه سلاحا فعالا على جهة المقاومة الثقافية البصرية، فكان يتواصل به مع شعبه، واستعمله وسيلة من أجل استنهاض قوى الشعب الجزائري وحثه على المقاومة بطريقة غير مباشرة من خلال التواصل معه بلوحات فنية تحمل عدة معان، فحثه على التصدي للاستعمار الفرنسي والسعي للتحرر وبذل الجهود الشعبية لنيله¹⁰ وقد ضمن أعماله بعبارات فنية بالخط العربي من أجل التواصل مع شعبه وطلابه في معهد الفنون الجميلة، ومن بين هذه الأعمال "معركة في البحر" حيث صور لنا عملا تشكيليا يعكس المعركة التي دارت بين الأسطول الإسلامي والأسطول المسيحي مضمنا عمله بمقولة تحفز وفي نفس الوقت رسالة لتواصل مع شعبه حيث كتب "النصر ثمر الإرادة والشجاعة والصبر والثبات"، وأيضا لوحة "سفينة على أبواب الجزائر" حيث ضمن عمله بعبارة "نصر من الله وفتح قريب" وأيضا "الجنة تحت ظلال السيوف" وغيرها من العبارات المحفزة لشعبه وحثه على المقاومة فتواصل معهم بطريقة غير مباشرة من خلال هذا الفن.

لقد تميزت بثقل المعاني والدور الرئاسي الكبير الذي لعبته، كون هذه المنمنمات البديعة ما هي إلا وسيلة إتصالية وتعبيرية لغتها الخطوط والأشكال والمساحات اللونية، أي أنها لغة مبنية على جملة من الدلائل البصرية التي تجتمع وتندمج فيما بينها لتكون لقطة مصورة ذات موضوع معين يحمل رسالة محددة أراد الفنان إيصالها إلى جمهور لوحته باعتباره أن هذه الأخيرة تمثل مساحته الخاصة للتعبير عن انشغالاته وأرائه ومواقفه إتجاه القضايا التي تشغله.¹¹

لقد استغل محمد راسم هذه المساحة التعبيرية لخدمة قضية عظيمة قضية الدفاع عن المقومات الحضارية والتاريخية لأمة بأكملها كان يعمل مستعمرها بشتى الوسائل على محو هويتها وطمسها بهدف القضاء على مقاومتها وإقتلاعها من جذورها. فكانت كافة لوحاته ومنمنماته شكلا ومضمونا تنصب في إطار إبراز ملامح الثقافة الجزائرية المحلية والعودة إلى أصولها التاريخية خدمة وتدعيما لروح المقاومة.¹²

لم يقتصر راسم على هذا وإنما قدم لنا أعمالا عكست حياة المجتمع الجزائري وبعض عاداته وتقاليده فقدم لنا لوحات رائعة كانت طريقة للتواصل مع الأجيال القادمة وتعريفها بتراث بلادها ومن الأمثلة منمنمة "ليالي رمضان" وأوضحها بعبارة تعكس عمله "ليلة النصف من رمضان في الجزائر" مبرزاً كيف كان المجتمع الجزائري يقضي وقته في ليالي رمضان كما صور لنا العمارة الإسلامية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ويوجد أعمال أخرى عادات وتقاليده مجتمعه .

لقد ساهمت هذه التحف الفنية التي قدمها الفنان الجزائري في التواصل مع أفراد مجتمعه في ذلك الوقت وفي نفس الوقت مع الأجيال القادمة. كما ساعد الخط العربي في أعمال الفنانين بقدر كبير باعتباره الصورة الحضارية الرائعة فهو يشكل أحد أهم الركائز الأساسية التي حفظت لنا التراث العربي الإسلامي من التلف.¹³

يعتبر الفن لغة تواصل حضاري تنبذ القطيعة، وترفع جدران الفصل، وبهذا يكون حلقة وصل بين الماضي والحاضر بين الأزمنة الماضية والمعاصرة بحيث يعبر عن خصوصيات زمانية ومكانية مرتبطة بالموروث الثقافي لكل أمة من الأمم الإسلامية.

كما أنه يخاطب الوجدان والعين بجمال الألوان لغرض حفظ صور الحياة والنمط المعيشي للمجتمعات الإنسانية عبر مختلف الأزمنة، والتعبير عن الصلة الفطرية الموجودة بين الإنسان وما يحيط به من الطبيعة والتعليق على الأحداث والوقائع التاريخية ووصف مجرياتها وغير ذلك، بحيث أتاحت هذه الرسوم فرصة التعرف على عادات وتقاليده المجتمع الإسلامي العربي عبر مراحل زمنية مختلفة، وأطلعتنا على تفاصيل الحياة اليومية وبذلك تعتبر وثائق مهمة جدا يمكن الرجوع إليها لدراسة حالة اجتماعية أو تاريخية ما.¹⁴ وبهذا يعتبر همزة وصل بين أفراد المجتمع الواحد بين مختلف الحضارات.

إن الفن الإسلامي في أشكاله المختلفة وألوانه المتعددة هو عبارة عن محاولة لتدوين إيقاع الطبيعة المؤثرة على الوجدان أو بعبارة أخرى يمكن القول بأنه تعبير راقى وجميل عن الحقائق الكونية الوجودية في إطار التصور الإسلامي له، وزد على ذلك لو تعمقنا في مساره التاريخي عبر رده من الزمن لوجدنا تجلياته وانتشاره المبهر الذي فاق الإبداع في مجتمعات وحضارات وقارات متعددة ومختلفة باختلاف مصادرها الفنية وأذواقه وغير ذلك من الخصائص الاجتماعية والحضارية التي تمتاز بها.¹⁴

لم يقتصر الفن الإسلامي على التصوير الإسلامي في التواصل مع المجتمعات بل إن فن العمارة أيضا كان له وقعه على مختلف الحضارات باعتبارها شاهدة تاريخية تاريخيا على التحولات الفكرية وتطورات السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها فكانت همزة وصل بين مختلف الشعوب.

ومن هذا المنطلق يتضح ويتأكد الدور الكبير للفن الإسلامي أو بالأحرى للتصوير الإسلامي في خدمة الخصوصيات الثقافية وقدرته على حمل الرسائل الهادفة العاكسة لقضايا وإنشغالات مصيرية يسعى الفنان إلى إبرازها واتخاذ الفن وسيلة للتواصل مع المجتمعات.

الهوامش:

- 1- إدهام محمد حنش، نظرية الفن الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى، 2013م، ص159.
- 2- المرجع نفسه، ص169.
- 3- الشريف علي بن أحمد الجرجاري، التعريفات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م، ص61.
- 4- أبو حيان التوحيدي، الهوامل والشوامل، دار المعارف، القاهرة، 1951م، ص47.
- 5- إدهام محمد حنش، نظرية الفن الإسلامي، ص170.
- 6- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة السادسة، بيروت، 1980م، ص36.
- 7- إدهام محمد حنش، نظرية الفن الإسلامي، ص176.
- 8- بلشير أمين، أثر فن المنمنمات الإيرانية في المنمنمات الجزائرية بمزاد ومحمد راسم نموذجاً، مذكرة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان، 2009/2008، ص13.
- 9- المهرجان الثقافي الدولي للمنمنمات والزخرفة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2010، ص92.
- 10- بلشير أمين، أثر فن المنمنمات الإيرانية في المنمنمات الجزائرية، ص52.
- 11- إيمان عفان، دلالة الصورة الفنية دراسة تحليلية سيميولوجية لمنمنمات محمد راسم، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم الإعلام والاتصال، الجزائر، 2005/2004، ص183.
- 12- المرجع نفسه، ص183.
- 13- الخط رموز وألوان، المتحف الوطني للزخرفة والمنمنمات والخط العربي، الجزائر، 2007م، ص16.
- 14- المهرجان الثقافي الدولي للمنمنمات والزخرفة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2013م، ص125.